سلسلة الأعلام

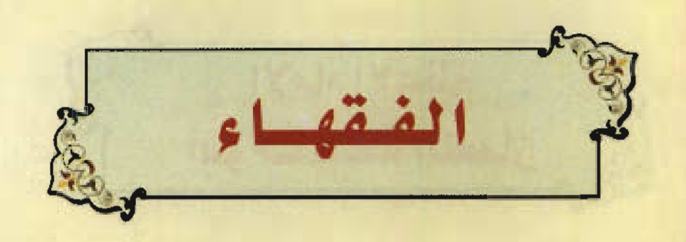
الفقهاء

تأليف: محمد عبد الظاهر المطارقى
رسوم: عطية الزهيرى
جرافيك: شريف محمد



١١ شارع الطوبجى - بين السرايات - الجيزة
تليفاكس: ٧٤٩٣٦٨٥
Site : www.ynabeea.com


بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا
مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم
مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن
يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا
تَبْدِيلًا ﴾



الْفِقْهُ هُوَ الْعِلْمُ بِالأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الْعَمَلِيَّةِ الْمُكْتَسَبُ مِنْ أَدِلَّتِهَا التَّفْصِيلِيَّةِ الصَّحِيحَةِ وِفْقَ أُصُولٍ فِقْهِيَّةٍ سَلِيمَةٍ. وَقَدْ حَثَّ اللهُ تَعَالَى عَلَى التَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ، فَقَالَ اللّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التَّوْبَة:١٢٢]. وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ :«مَنْ يُرِدِ اللّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ».

وَالْفُقَهَاءُ جَمَعُوا بَيْنَ حِفْظِهِمْ لِلْعُلُومِ وَبَيْنَ اسْتِنْبَاطِ الأَحْكَامِ مِنَ الْعُلُومِ، فَيَسْتَفِيدُ النَّاسُ مِنْهُمْ مِنْ جِهَتَيْنِ: حِفْظُ النُّصُوصِ وَمَعْرِفَةُ مَعَانِيهَا، وَتَطْبِيقُهَا عَلَى وَقَائِعِ النَّاسِ.

وَالنَّاسُ مَعَ الْفِقْهِ وَالْفُقَهَاءِ يَعْبُدُونَ اللهَ تَعَالَى عَلَى بَصِيرَةٍ، وَيَعْرِفُونَ الْحَلالَ وَالْحَرَامَ، وَالْوَاجِبَاتِ وَالْمَنْدُوبَاتِ. يُحْكَى أَنَّ بَعْضَ الصَّحَابَةِ كَانُوا فِي غَزْوَةٍ فَأُصِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَأْسِهِ، وَأَرَادَ أَنْ يَغْتَسِلَ، فَسَأَلَ أَصْحَابَهُ: هَلْ لِي رُخْصَةٌ أَنْ أَتَيَمَّمَ؟ فَقَالُوا: لا رُخْصَةَ لَكَ؛ الْمَاءُ مَوْجُودٌ. فَاغْتَسَلَ، فَدَخَلَ الْمَاءُ فِي الْجُرْحِ، فَمَاتَ. فَلَمَّا عَلِمَ بِذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللهُ؛ أَلاَ سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا؟! فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ؛ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يُعَصِّبَ عَلَى جُرْحِهِ خِرْقَةً، وَيَمْسَحَ عَلَيْهَا، وَيَغْسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ . لَقَدْ لامَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ لأَنَّهُمْ لَمْ يَتَعَلَّمُوا وَلَمْ يَسْأَلُوا، وَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ.

وَفِي هَذَا الْكِتَابِ نَتَعَرَّفُ عَلَى حَيَاةِ خَمْسَةٍ مِنْ أَشْهَرِ الْفُقَهَاءِ الَّذِينَ كَانَ لَهُمْ أَثَرٌ فِي حَيَاةِ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَتْ لَهُمْ إِسْهَامَاتٌ عِلْمِيَّةٌ لا يُنْكِرُهَا أَحَدٌ.

الإمام الأعظم
أبو حنيفة النعمان

يَا لَهَا مِنْ قَامَةٍ سَامِقَةٍ فِي تَارِيخِ الفِقْهِ الإِسْلامِيِّ! ذَلِكُمْ هُوَ الإِمَامُ الأَعْظَمُ "أَبُوحَنِيْفَةَ النُّعْمَانُ بنُ ثَابِتٍ"، صَاحِبُ إِحْدَى المَدَارِسِ الفِقْهِيَّةِ المَعْرُوفَةِ وَالرَّائِدَةِ، وَالتِي شَاعَتْ وَانْتَشَرَتْ فِي سَمَاءِ الدُّنْيَا حَتَّى يَوْمِنَا هَذَا.

وُلِدَ الإِمَامُ أَبُوحَنِيْفَةَ سَنَةَ ثَمَانِيْنَ للْهِجْرَةِ بِمَدِيْنَةِ الكُوْفَةِ، وَقَدَّرَ المَوْلَى - عَزَّ وَجَلَّ - لَهُ أَنْ يَرَى بَعْضًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، كَأَنَسِ بنِ مَالِكٍ، وَعَبْدِ اللهِ بنِ أَبِي أَوْفَى، وَوَاثِلَةَ بنِ الأَسْقَعِ.

وَلَمَّا كَبِرَ أَبُو حَنِيْفَةَ، وَبَلَغَ مَبْلَغَ الشَّبَابِ، كَانَ اهْتِمَامُهُ يَكَادُ يَنْصَبُّ عَلَى أَعْمَالِ التِّجَارَةِ، وَاسْتَطَاعَ أَنْ يُحَقِّقَ نَجَاحًا مَلْحُوظًا فِي مِهْنَةِ المَلابِسِ وَالمَنْسُوجَاتِ الصُّوفِيَّةِ وَغَيْرِهَا، وَكَانَ النَّاسُ يَأْتُونَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ؛ لِمَا اشْتُهِرَ بِهِ مِنَ الأَمَانَةِ وَالصِّدْقِ، وَكَانَ مَثَلُهُ الأَعْلَى هُوَ الصَّحَابِيُّ الجَلِيْلُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيْقُ؛ فَكَانَ يَتَمَثَّلُهُ فِي طَرِيْقَةِ البَيْعِ وَالشِّرَاءِ.

ذاتَ يَومٍ مَرَّ عَلَى مَجْمُوعَةٍ مِنَ العُلَمَاءِ، وَكَانَ مِنْ بَيْنِهِمْ الفَقِيْهُ عَامِرٌ الشَّعْبِيُّ، فَدَعَاهُ وَسَأَلَهُ: إِلَى مَنْ تَخْتَلِفُ أَي: تَذْهَبُ؟ قَالَ أَبُو حَنِيْفَةَ: إِلَى السُّوْقِ.. هَزَّ الشَّعْبِيُّ رَأْسَهُ قَائِلاً: لَمْ أَعْنِ الاخْتِلافَ إِلَى السُّوْقِ. عَنَيْتُ الاخْتِلافَ إِلَى العُلَمَاءِ.. صَمَتَ أَبُو حَنِيْفَةَ قَلِيْلاً، وَطَأْطَأَ رَأْسَهُ فِي خَجَلٍ قَائِلاً: أَنَا قَلِيْلُ الاخْتِلافِ إِلَيْهِمْ.

ابْتَسَمَ عَامِرٌ الشَّعْبِيُّ قَائِلاً: لا تَفْعَلْ، وَعَلَيْكَ بِالنَّظَرِ فِي العِلْمِ وَمُجَالَسَةِ العُلَمَاءِ؛ فَإِنِي أَرَى فِيْكَ يَقَظَةً وَحَرَكَةً.. يَقُولُ أَبُو حَنِيْفَةَ: فَوَقَعَ فِي قَلْبِي مِنْ قَوْلِ عَامِرٍ الشَّعْبِيِّ؛ فَتَرَكْتُ الاخْتِلافَ إِلَى السُّوْقِ، وَأَخَذْتُ فِي العِلْمِ، فَنَفَعَنِي اللهُ بِقَوْلِهِ.

وَهَكَذَا تَحَوَّلَ أَبُو حَنِيْفَةَ، وَاسْتَبْدَلَ السُّوْقَ بِالمَسْجِدِ، فَصَارَ يَتَرَدَّدُ إِلَى العُلَمَاءِ، وَيَسْتَمِعُ إِلَيْهِمْ بِشَغَفٍ وَاهْتِمَامٍ.

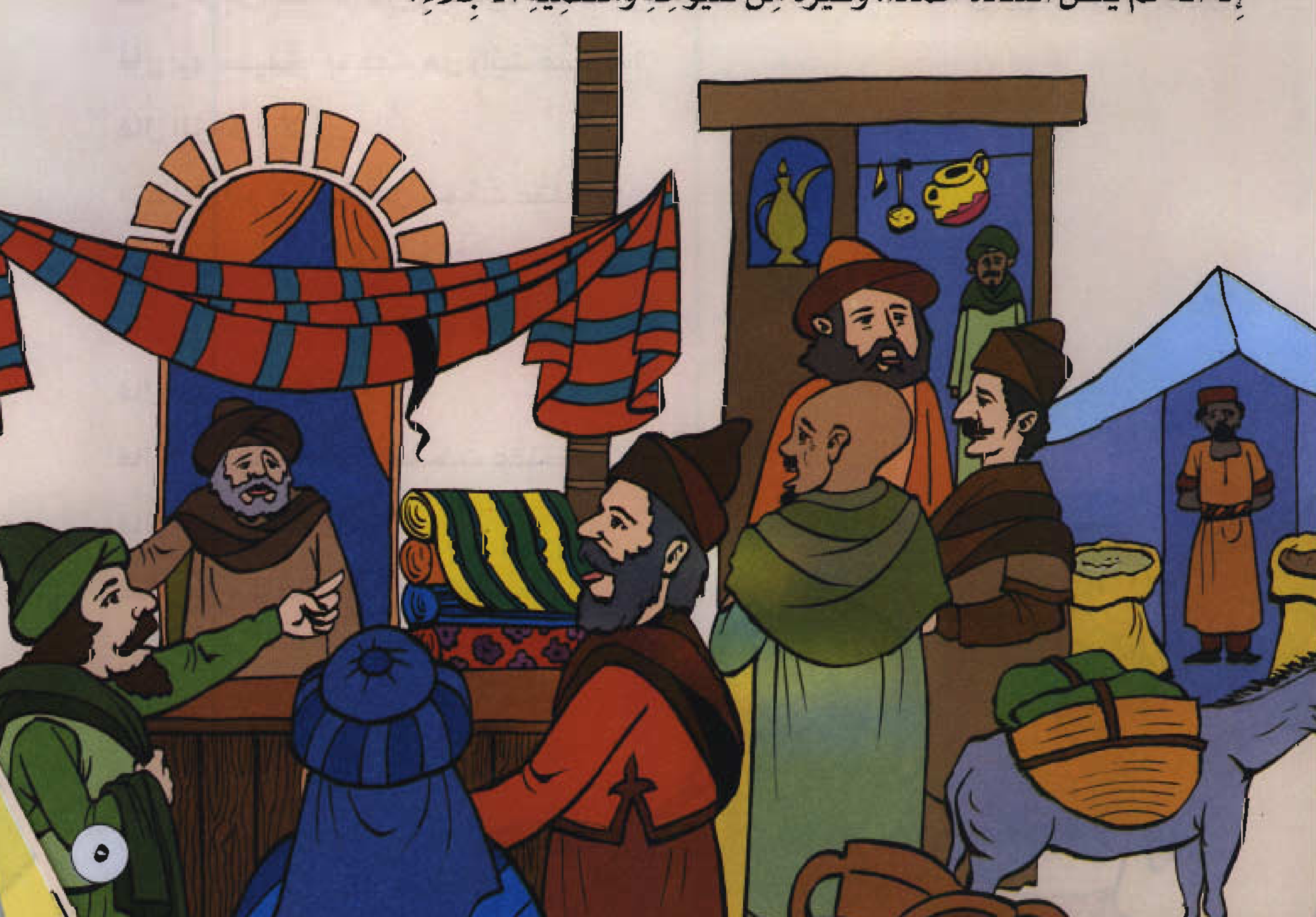


وَكَانَ أَبُو حَنِيْفَةَ يَتَعَهَّدُ طُلَّابَ العِلْمِ، وَالفُقَهَاءَ، وَالمُحَدِّثِيْنَ، بِرَوَاتِبَ ثَابِتَةٍ، فَضْلاً عَنْ مَأْكَلِهِمْ وَكِسْوَتِهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَشْعُرُ أَنَّ مَا يَقُومُ بِهِ أَبُو حَنِيْفَةَ عَلَى سَبِيْلِ الصَّدَقَةِ، حَيْثُ كَانَ يُؤَكِّدُ لَهُمْ مُبْتَسِمًا: هَذِهِ أَرْبَاحُ بَضَائِعِكُمْ، أَجْرَاهَا اللهُ لَكُمْ عَلَى يَدِي! وَاللهِ مَا أَعْطَيْتُكُمْ مِنْ مَالِي شَيْئًا، وَإِنَّمَا هُوَ فَضْلُ اللهِ عَلَيَّ فِيْكُمْ، فَمَا فِي رِزْقِ اللهِ حَوْلٌ لأَحَدٍ غَيْرِ اللهِ.

كَانَتْ حَلَقَاتُ العِلْمِ مُنْتَشِرَةً فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَكَانَ أَبُو حَنِيْفَةَ يَتَرَدَّدُ عَلَيْهِمْ جَمِيْعًا، غَيْرَ أَنَّ هُنَاكَ شُيُوخًا كِبَارًا أَخَذَ أَبُو حَنِيْفَةَ العِلْمَ عَلَى أَيْدِيْهِمْ، مِنْهُمْ: فَقِيْهُ الكُوْفَةِ، "حَمَّادُ بنُ أَبِي سُلَيْمَانَ"، وَالإِمَامُ " جَعْفَرٌ الصَّادِقُ"، وَ "عَطَاءٌ "، وَ "الزُّهرِيُّ "، وَ "قَتَادَةُ"، وَغَيْرُهُمْ.

غَيْرَ أَنَّ أَحَبَّهُمْ وَأَقْرَبَهُمْ إِلَى قَلْبِهِ، هُوَ "حَمَّادٌ". وَقَدْ أَحَبَّهُ حَمَّادٌ هُوَ الآخَرُ، وَقَالَ لِمَنْ يَحْضُرُونَ دُرُوسَهُ: لا يَجْلِسْ فِي صَدْرِ الحَلَقَةِ بِجِوَارِي غَيْرُ أَبِي حَنِيْفَةَ.

فَلَمَّا مَاتَ "حَمَّادٌ "، جَاءَ النَّاسُ إِلَى أَبِي حَنِيْفَةَ يَطْلُبُونَ مِنْهُ أَنْ يُعَلِّمَهُمْ أُمُورَ دِيْنِهِمْ، اسْتَجَابَ أَبُو حَنِيْفَةَ لَهُمْ، وَأَصْبَحَ يُدَرِّسُ للنَّاسِ بِأُسْلُوبٍ لَمْ يَعْهَدُوهُ مِنْ قَبْلُ؛ فَأُعْجِبُوا بِطَرِيْقَتِهِ، وَكَثُرَتْ أَعْدَادُهُمْ، وَصَارَ نَجْمُهُ يَلْمَعُ، وَاسْمُهُ يَعْلُو وَيَرْتَفِعُ، وَهُوَ عَلَى الرَّغْمِ مِمَّا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنْ عُلُوِّ الشَّأْنِ، إِلاَّ أَنَّهُ لَمْ يَنْسَ أُسْتَاذَهُ حَمَّادًا، وَغَيْرَهُ مِنْ شُيُوخِهِ وَمُعَلِّمِيْهِ الأَجِلاَّءِ.



وَيُحْكَى أَنَّهُ كَانَ أَحَدُ جُلَسَائِهِ يَوْمًا يَجْلِسُ وَقَدْ ظَهَرَ فِي هَيْئَةٍ مُزْرِيَةٍ، فَلَمَّا انْفَضَّ المَجْلِسُ، اسْتَوْقَفَهُ أَبُو حَنِيْفَةَ، ثُمَّ أَخْرَجَ كِيْسًا بِهِ أَلْفُ دِرْهَم، وَقَالَ لَهُ: خُذْ هَذِهِ الدَّرَاهِمَ، وَاعْتَنِ بِمَظْهَرِكَ.

فَقَالَ لَهُ: لَكِنِّي- وَالحَمْدُ للهِ- مَيْسُورُ الحَالِ، وَلَسْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَى هَذَا المَالِ، فَأَنَا عِنْدِي الكَثِيْرُ.

قَالَ أَبُو حَنِيْفَةَ: إِذَا كَانَ اللهُ قَدْ أَنْعَمَ عَلَيْكَ، فَأَيْنَ آثَارُ نِعْمَتِهِ؟! أَمَا بَلَغَكَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَالَ: "إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ"؛ فَيَنْبَغِي عَلَيْكَ أَنْ تُصْلِحَ مِنْ شَأْنِكَ حَتَّى لا تَغُمَّ صَدِيْقَكَ.

كَانَتْ للإِمَامِ أَبِي حَنِيْفَةَ مَوَاقِفُ وَحِوَارَاتٌ تَنُمُّ عَنْ فَرْطِ ذَكَائِهِ، وَقُوَّةِ حُجَّتِهِ، وَقَدْ تَجَلَّتْ فِي مُنَاظَرَاتِهِ مَعَ أَهْلِ البَاطِلِ، وَأَصْحَابِ الفِكْرِ السَّقِيْمِ المُنْحَرِفِ عَنْ مَنْهَجِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ .

ذَاتَ يَوْمٍ، سَأَلَ الإِمَامَ أَبَا حَنِيْفَةَ أَحَدُ الجَاحِدِيْنَ: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟!

قَالَ أَبُو حَنِيْفَةَ: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيْفُ الخَبِيْرُ﴾ [الأنعام:١٠٣].

فَقَالَ الرَّجُلُ الجَاحِدُ: هَلْ لَمَسْتَهُ؟! هَلْ شَمَمْتَهُ؟! هَلْ ذُقْتَهُ؟!

فَقَالَ أَبُو حَنِيْفَةَ: سُبْحَانَ رَبِّي! ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ وَهُوَ السَّمِيْعُ البَصِيْرُ﴾ [الشورى:١١].

فَقَالَ الرَّجُلُ: فَإِذَا لَمْ تَكُنْ رَأَيْتَهُ، وَلا لَمَسْتَهُ، وَلا شَمَمْتَهُ، وَلا أَحْسَسْتَهُ، فَمِنْ أَيْنَ تُثْبِتُ أَنَّهُ مَوْجُودٌ؟

قَالَ أَبُو حَنِيْفَةَ: يَا هَذَا، هَلْ رَأَيْتَ عَقْلَكَ؟

قَالَ الرَّجُلُ: لا.

فَتَسَاءَلَ أَبُو حَنِيْفَةَ: هَلْ سَمِعْتَ عَقْلَكَ؟

فَهَزَّ الجَاحِدُ رَأْسَهُ، وَقَالَ: لا.

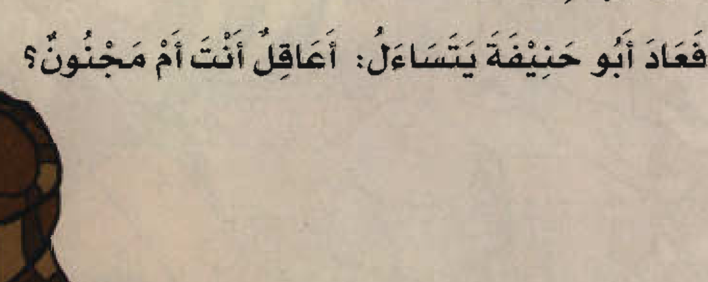
قَالَ أَبُو حَنِيْفَةَ: هَلْ شَمَمْتَ عَقْلَكَ؟

قَالَ الرَّجُلُ الجَاحِدُ: لا.

قَالَ أَبُو حَنِيْفَةَ: هَلْ أَحْسَسْتَ عَقْلَكَ؟

قَالَ الجَاحِدُ: لا.

فَعَادَ أَبُو حَنِيْفَةَ يَتَسَاءَلُ: أَعَاقِلٌ أَنْتَ أَمْ مَجْنُونٌ؟



قَالَ الرَّجُلُ الجَاحِدُ: أَنَا عَاقِلٌ.

فَتَسَاءَلَ أَبُو حَنِيْفَةَ: فَأَيْنَ عَقْلُكَ؟

قَالَ الجَاحِدُ: مَوْجُودٌ.

قَالَ أَبُو حَنِيْفَةَ: كَذَلِكَ اللهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - مَوْجُودٌ.

وَهَكَذَا ظَلَّ الإِمَامُ الأَعْظَمُ أَبُو حَنِيْفَةَ - رَحِمَهُ اللهُ - يُنَاضِلُ وَيُجَاهِدُ، وَيَنْشُرُ عِلْمَهُ وَفِقْهَهُ بَيْنَ النَّاسِ، مِنْ أَجْلِ دِيْنِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - حَتَّى لَقِيَ رَبَّهُ، وَقَدْ تَرَكَ مِنْ تُرَاثِهِ وَتَلامِيْذِهِ الكَثِيْرَ وَالكَثِيْرَ. غَيْرَ أَنَّ الكَمَالَ للهِ وَحْدَهُ، فَإِنَّ الإِمَامَ أَبُو حَنِيْفَةَ كَانَ يُحَذِّرُ مِنَ التَّعَصُّبِ الأَعْمَى لِمَذْهَبِهِ،

وَكَانَ يَقُولُ دَائِمًا: اعْرِضُوا قَوْلِي عَلَى الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَإِنْ خَالَفَ قَوْلِي كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ رَسُوْلِهِ ﷺ فَاضْرِبُوا بِقَوْلِي عُرْضَ الحَائِطِ.

رَحِمَ اللهُ الإِمَامَ الأَعْظَمَ أَبَا حَنِيْفَةَ النُّعْمَانَ، وَجَزَاهُ عَنِ الإِسْلامِ وَالمُسْلِمِيْنَ خَيْرَ الجَزَاءِ.



إمام دار الهجرة
مـــالـــك بن أنس

إنَّهَا مَدِيْنَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَالتِي هَاجَرَ إِلَيْهَا سَيِّدُ الخَلْقِ، وَإِمَامُ الحَقِّ، مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللهِ ﷺ، وَأَتْبَاعُهُ مِنَ المؤْمِنِيْنَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، لِتَفْرِدَ لَهُمْ تِلْكَ المَدِيْنَةُ الطَّيِّبَةُ أَجْنِحَةَ الحُبِّ وَالشَّوْقِ الجَارِفِ.

وَمِنْ تِلْكَ المَدِيْنَةِ خَرَجَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيهِ، فَحَمَلُوا مَشْعَلَ النُّورِ، وَانطَلَقُوا إِلَى الآفَاقِ يَنشُرُونَ دِينَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَمِنْ هؤلاء الرجل مَالِكُ بنُ أَنَسٍ بنِ مَالِكٍ، كَانَ جَدُّهُ الثَّانِي "أَبُو عَامِرِ بنِ عَمْرٍو" مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقَدْ شَهِدَ مَعَهُ الغَزَوَاتِ كُلَّهَا إلا بَدْرًا، أَمَّا جَدُّهُ الأَوَّلُ "مَالِكُ بنُ أَبِي عَامِرٍ"، فَكَانَ أَحَدَ التَّابِعِيْنَ الكِبَارِ مِنَ الرَّعِيْلِ الأَوَّلِ.

وِلِدَ مَالِكُ بنُ أَنَسٍ بِمَدِيْنَةِ النُّوْرِ سَنَةَ ثَلاثٍ وَتِسْعِيْنَ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي عَهْدِ الوَلِيْدِ بن عَبْدِ المَلِكِ الأُمَوِيِّ.

وَقَدْ أَجْمَعَ أَهْلُ العِلْمِ قَاطِبَةً، أَنَّ مَالِكَ بنَ أَنَسٍ هُوَ إِمَامُ دَارِ الهِجْرَةِ، وَهُوَ لَمْ يَصِلْ إِلَى تِلْكَ المَكَانَةِ السَّامِقَةِ بِسهُولَةٍ، وَمِنْ حُسْنِ الطَّالِعِ أَنَّهُ وِلِدَ بِمَدِيْنَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.



وَمِنْ هُنَا تَرَعْرَعَ مَالِكُ بنُ أَنَسٍ، وَتَعَلَّمَ عَلَى أَيْدِي كِبَارِ العُلَمَاءِ، وَمَشَاهِيرِ الفُقَهَاءِ، حَتَّى قِيْلَ: إِنَّهُ أَخَذَ العِلْمَ عَلَى تِسْعِمِائَةِ شَيْخٍ، مِنْهُمْ ثَلاثُمِائَةٍ مِنَ التَّابِعِيْنَ، وَسِتُّمِائَةٍ مِنْ تَابِعِيْهِمْ. وَلَعَلَّ مِنْ أَهَمِّهِمْ "عَبْدَ الرَّحْمَنِ بنَ هُرْمُزَ الأَعْرَجِ"، وَهُوَ أَكْثَرُ الشُّيُوخِ الذِيْنَ جَالَسَهُمْ مَالِكٌ فِي بِدَايَاتِهِ الأُوْلَى، فَقَضَى بَيْنَ يَدَيْهِ مَا يَقْرُبُ مِنْ سَبْعِ سَنَوَاتٍ، يَنْهَلُ مِنْ بَحْرِ عِلْمِهِ وَفِقْهِهِ الكَثِيْرَ وَالكَثِيْرَ.

وَمِنْ شيُوخِهِ كَذَلِكَ، "رَبِيْعَةُ بنُ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ فروخ"، وَ "نَافِعُ، مَوْلَى عَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ"، وَ "جَعْفَرُ بنُ مُحَمَّدٍ البَاقِرِ"، وَأَعْدَادٌ لا حَصْرَ لَهَا مِنَ التَّابِعِيْنَ.

وَقَدْ نَشَأَ مَالِكٌ فِي بِيْئَةٍ صَالِحَةٍ، تُقَدِّرُ العِلْمَ، وَتُوَقِّرُ العُلَمَاءَ، وَقَدْ حَبَاهُ اللهُ بِمَوْهِبَةِ الحِفْظِ، فَكَانَتْ لَهُ قُدْرَةٌ عَجِيْبَةٌ عَلَى حِفْظِ الأَحَادِيْثِ التِي يَسْمَعُهَا فِي التَّوِّ، فَمَا أَنْ يَسْمَعَ حَدِيْثًا مِنْ مِنْ أَحَدِ الثِّقَاتِ المَشْهُودِ لَهُمْ بِالتَّقْوَى وَالصَّلاحِ، حَتَّى يَلْتَصِقَ الحَدِيْثُ بِقَلْبِهِ مُبَاشَرَةً، فَلا يُفَارِقُ لِسَانَهُ حِيْنَ يَطْلُبُهُ.

كَانَ يَأْتِي إِلَي مَالِكٍ طُلاَّبُ العِلْمِ مِنْ مُخْتَلَفِ أَرْجَاءِ العَالَمِ الإِسْلامِيِّ، وَكَانَ مَالِكٌ يَسْتَمِعُ إِلَيْهِمْ، وَيَتَعَرَّفُ عَلَى مَشَاكِلِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ، وَأَهَمِّ الهُمُومِ وَالقَضَايَا التِي تَشْغَلُهُمْ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا.

وَاسْتَطَاعَ بِجَدَارَةٍ أَنْ يَجْلِسَ عَلَى كُرْسِيِّ التَّدْرِيْسِ بِالمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ، وَأَنْ يَجْلِسَ بَعْضُ مَشَايِخِهِ الذِيْنَ أَخَذَ العِلْمَ يَوْمًا عَلَى أَيْدِيْهِمْ؛ لِيَسْتَمِعُوا إِلَيْهِ، وَيَتَعَلَّمُوا مِنْهُ.



وَلَمْ يَصِلِ الإمَامُ مَالِكٌ إلَى تِلْكَ المَكَانَةِ الشَّامِخَةِ إلا بَعْدَ جَهْدٍ شَاقٍّ، وَقَلْبٍ يَقِظٍ، وَعَقْلٍ حَاضِرٍ، وَذَاكِرَةٍ قَوِيَّةٍ، وَاسْتِعَانَةٍ بِاللهِ تَعَالَى وَتَوْفِيْقِهِ.

كَمَا أَنَّهُ سَعَى بَيْنَ العُلَمَاءِ يَنْهَلُ مِنْ أَحَادِيْثِ رَسُولِ اللهِ، وَيَسْتَبْقِي مِنْهَا مَا يُدَلُّ عَلَى صِحَّتِهِ وَقُوَّتِهِ، وَيَسْتَبْعِدُ مَا يَظُنُّ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ يَشُكُّ فِي صِحَّتِهِ.

وَكَانَ مِنْ عَادَتِهِ إذَا تَحَدَّثَ فِي الأُمُورِ العَامَّةِ، أَنْ يَجْلِسَ عَلَى سَجِيَّتِهِ، أَمَّا إذَا تَكَلَّمَ بِأَحَادِيْثِ النَّبِيِّ ﷺ فَإِنَّهُ لا يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ إلا وَهُوَ عَلَى وضُوءٍ، وَيَرْتَدِي أَجْمَلَ مَلابِسِهِ، وَيَعْتَمُّ بِعِمَامَةٍ مَخْصُوصَةٍ، وَيَضَعُ الطِّيْبَ، ثُمَّ يَخْرُجُ إلَى النَّاسِ فِي هُدُوءٍ وَسَكِيْنَةٍ، وَيَتَحَدَّثُ بِصَوْتٍ خَافِتٍ؛ إجْلالاً وَاحْتِرَامًا لأَحَادِيْثِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ، قَالَ: "يَا أَيُّهَا الذِيْنَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ"؛ فَمَنْ رَفَعَ صَوْتَهُ عِنْدَ حَدِيْثِ النَّبِيِّ، فَكَأَنَّمَا رَفَعَ صَوْتَهُ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ.

وَهُوَ بِرَغْمِ مَا وَصَلَ إلَيْهِ مِنْ مَكَانَةٍ سَامِيَةٍ، وَشُهْرَةٍ وَاسِعَةٍ تَجُوبُ الآفَاقَ، إلا أَنَّهُ لَمْ يَسْتَحِ يَوْمًا إذَا سَأَلَهُ أَحَدٌ عَنْ مَسْأَلَةٍ لا يَعْرِفُ جَوَابَهَا، أَنْ يُعْلِنَ لَهُ ذَلِكَ، فَقَدْ حَدَثَ أَنْ جَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى البِلادِ وَقَالَ لَهُ: جِئْتُكَ مِنْ مَسِيْرَةِ سِتَّةِ أَشْهُرٍ، وَقَدْ حَمَّلَنِي قَوْمِي مَسْأَلَةً، وَيُرِيْدُونَ جَوَابَهَا.

فَهَزَّ الإمَامُ مَالِكٌ رَأْسَهُ قَائِلاً لَهُ: مَا شَاءَ اللهُ، سَلْ؟

فَلَمَّا عَرَضَ مَسْأَلَتَهُ، إذْ بِهِ يُفَاجِئُ بِالإجَابَةِ: "لا أَدْرِي"!!





بُهِتَ الرَّجُلُ، وَقَالَ: أَقُولُ لَكَ: جِئْتُكَ مِنْ مَسِيْرَةِ سِتَّةِ أَشْهُرٍ، وَتقُولُ لِي: "لا أَدْرِي"!
فَقَالَ الإِمَامُ: نَعَمْ، لا أَدْرِي، نَظَرَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ فِي دَهْشَةٍ، وَقَالَ: وَمَاذَا أَرُدُّ عَلَيْهِمْ حِيْنَ أَعُودُ إِلَيْهِمْ؟
فَأَجَابَ الإِمَامُ مَالِكٌ: قُلْ لَهُمْ: "لا أَدْرِي"! أَنَا لا أُحْسِنُ هَذِهِ المسْأَلَةَ. قُلْ لَهُمْ ذَلِكَ.

وَكَانَ يُؤَكِّدُ عَلَى تَلامِيْذِهِ هَذَا المَعْنَى قَائِلاً: يَنْبَغِي لِطَالِبِ العِلْمِ أَنْ يَتَعَلَّمَ "لا أَدْرِي"، فَلا يُجِيْبُ إِلاَّ عَمَّا يَعْرِفُهُ فَقَطْ.

وَبَلَغَ مِنْ عُلُوِّ شَأْنِهِ وَشَجَاعَتِهِ، أَنَّهُ لَمْ يَسْتَجِبْ لأَمِيرِ المؤمِنِينَ "هَارُوْنَ الرَّشِيْدِ"، حِيْنَ دَعَاهُ إِلَيْهِ بِالقَصْرِ؛ لِيَسْتَمِعَ إِلَى عِلْمِهِ، لَكِنَّ الإِمَامَ رَفَضَ بِكُلِّ إِبَاءٍ وَشُمُوخٍ، قَائِلاً: العِلْمُ يُؤْتَى إِلَيْهِ، وَلا يَأْتِي لأَحَدٍ، وَبِالفِعْلِ، ذَهَبَ "هَارُونُ الرَّشِيْدُ"، وَجَلَسَ بَيْنَ العَامَّةِ يَسْتَمِعُ إِلَى الإِمَامِ، وَلَمَّا فَرِغَ مِنْ دَرْسِهِ، قَالَ لَهُ هَارُونُ الرَّشِيْدُ: سَوْفَ أَبْعَثُ إِلَيْكَ بِوَلَدَيَّ لِيَحْضرَا دُرُوسَكَ.

فَقَالَ الإِمَامُ مَالِكٌ: عَلَى أَلا يَتَخَطَّيَا الرِّقَابَ، وَيَجْلِسَا حَيْثُ يَنْتَهِي بِهِمَا المَجْلِسُ.

وَمِنَ الأَعْمَالِ العَظِيْمَةِ التِي قَامَ بِهَا الإِمَامُ مَالِكٌ، كِتَابَتُهُ لِلْمُوَطَّأ، وَالذِي اسْتَغْرَقَ فِي إِعْدَادِهِ وَتَصْنِيْفِهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، جَمَعَ فِيْهِ الأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ، وَكُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنْ أَحَادِيْثِ رَسُوْلِ اللهِ وَقَدْ شَاءَ اللهُ لِهَذَا المُصَنَّفِ الكَبِيْرِ أَنْ يَشْتَهِرَ وَيَنْتَشِرَ فِي شَتَّى الأَرْجَاءِ، وَيَبْقَى إِلَى زَمَانِنَا الحَالِيِّ، دُوْنَ أَنْ تَمْتَدَّ إِلَيْهِ يَدُ التَّغْيِيْرِ أَوِ التَّعْدِيْلِ.

قَالَ مَالِكٌ: عَرَضْتُ كِتَابِيَ هَذَا عَلَى سَبْعِيْنَ فَقِيْهًا مِنْ فُقَهَاءِ المَدِيْنَةِ، فَكُلُّهُمْ وَاطَأَنِي عَلَيْهِ؛ فَسَمَّيْتُهُ "المُوَطَّأَ". كَانَ الإِمَامُ مَالِكٌ يُحَذِّرُ مِنَ التَّعَصُّبِ الأَعْمَى لِمَذْهَبِهِ، وَكَانَ يَقُولُ دَائِمًا: كُلُّ كَلامٍ يُؤْخَذُ مِنْهُ وَيُرَدُّ عَلَيْهِ، إِلاَّ صَاحِبَ هَذَا المَقَامِ، وَيُشِيْرُ بِيَدِهِ نَحْوَ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ.

ناصر السنة
محمد بن إدريس الشافعي

لَمَّا مَاتَ الإِمَامُ "أَبُو حَنِيْفَةَ النُّعْمَانُ" إِمَامُ أَهْلِ الرَّأْيِ، وَصَاحِبُ إِحْدَى المَذَاهِبِ الكُبْرَى فِي الفِقْهِ الإِسْلامِيِّ، قَدَّرَ المَوْلَى - عَزَّ وَجَلَّ - أَنْ يُوْلَدَ إِمَامٌ آخَرُ فِي نَفْسِ العَامِ.

وَتَقُولُ بَعْضُ الرِّوَايَاتِ: إِنَّهُ وِلِدَ فِي نَفْسِ اللَّيْلَةِ التِي قُبِضَ فِيْهَا أَبُو حَنِيْفَةَ!

وَهُوَ يُعَدُّ فِي سَمَاءِ الفِقْهِ نَجْمًا سَاطِعًا، اسْمُهُ لا يَزَالُ يَتَرَدَّدُ فِي آفَاقِ الدُّنْيَا، وَمَذْهَبُهُ مَدْرَسَةٌ شَامِخَةٌ، مُتَّسِعَةُ الأَرْجَاءِ..

إِنَّهُ نَاصِرُ الحَدِيْثِ، وَمُجَدِّدُ القَرْنِ الثَّانِي، وَقَاضِي الشَّرِيْعَةِ، كَمَا كَانَ أَهْلُ مِصْرَ يُطْلِقُونَ عَلَيْهِ..

هُوَ مُحَمَّدُ بنُ إِدْرِيْسَ الشَّافِعِيُّ.

وُلِدَ الشَّافِعِيُّ سَنَةَ ١٥٠هـ، فِي غَزَّةَ بِالشَّامِ، لأُسْرَةٍ شَدِيْدَةِ الفَقْرِ، وَكَانَ يَتِيْمًا؛ فَخَافَتْ أُمُّهُ أَنْ يَضِيْعَ نَسَبُهُ فِي زِحَامِ النَّاسِ، وَهُوَ سَلِيْلُ الأُسْرَةِ الشَّرِيْفَةِ التِي تَنْتَمِي إِلَى نَسَبِ النَّبِيِّ ﷺ فَأَدْرَكَتْ بِوَعْيِهَا أَنْ تُنْقِذَهُ وَتَنْطَلِقَ بِهِ إِلَى مَكَّةَ؛ لِيَلْتَقِيَ بِأَبْنَاءِ عُمُومَتِهِ وَأَقْرِبَائِهِ مِنَ القُرَشِيِّيْنَ.

وَفِي مَكَّةَ المُكَرَّمَةَ، عَمِلَتْ أُمُّهُ عَلَى تَحْفِيْظِهِ القُرْآنَ الكَرِيْمَ، فَحَفِظَهُ جَمِيْعَهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ، وَهُو الذِي لَمْ يَبْلُغِ السَّابِعَةَ بَعْدُ مِنْ عُمْرِهِ.

ثُمَّ دَفَعَتْ بِهِ إِلَى أَيْدِي العُلَمَاءِ بِمَكَّةَ؛ لِيَتَعَلَّمَ الحَدِيْثَ، وَيَدْرسَ الفِقْهَ.

وَكَانَ الفَقِيْهُ مُسْلِمُ بنُ خَالِدٍ الزِّنْجِيِّ أُسْتَاذَهُ وَمُعَلِّمَهُ، وَغَيْرُهُ مِنْ أَئِمَّةِ مَكَّةَ.



وَمِنَ العَجِيْبِ أَنَّ هَذَا الغُلامَ الصَّغِيْرَ الذِي لَمْ يَتَجَاوَزْ عُمْرُهُ التَّاسِعَةَ، اسْتَطَاعَ بِمَهَارَةٍ فَائِقَةٍ، وَقُدْرَةٍ تُثِيْرُ الدَّهْشَةَ وَالإِعْجَابَ، أَنْ يَحْفَظَ مُوَطَّأَ الإِمَامِ مَالِكٍ، وَهُوَ أَحَدُ التَّصَانِيْفِ الضَّخْمَةِ المَعْرُوفَةِ.

وَلَمَّا بَلَغَ الثَّالِثَةَ عَشْرَ رَحَلَ إِلَى المَدِيْنَةِ، وَمَعَهُ رِسَالَةُ تَوْصِيَةٍ مِنْ وَالِي مَكَّةَ - لِمَا وَجَدَ فِيْهِ مِنْ نَبَاهَةٍ وَذَكَاءٍ - لِيُقَدِّمَهَا إِلَى وَالِي المَدِيْنَةِ.

وَلَمَّا رَأَتْ أُمُّهُ اسْتِعْدَادَهُ لِلتَّعَلُّمِ، وَقُدْرَتَهُ الفَذَّةَ المُدْهِشَةَ عَلَى الحِفْظِ وَالفَهْمِ وَالاسْتِيْعَابِ، أَخْرَجَتْ لَهُ مَبْلَغًا مِنَ المَالِ كَانَتْ تَدَّخِرُهُ مُنْذُ سَنَوَاتٍ طَوِيْلَةٍ لِمِثْلِ هَذَا اليَوْمِ.

وَلَمَّا اطْمَأَنَّ مُحَمَّدُ بنُ إِدْرِيْسَ الشَّافِعِيُّ لِلْخُرُوجِ ضِمْنَ إِحْدَى القَوَافِلِ المُتَّجِهَةِ صَوْبَ المَدِيْنَةِ، قَبَّلَ يَدَ أُمِّهِ، ثُمَّ طَلَبَ مِنْهَا أَنْ تَدْعُوَ اللهَ لَهُ أَنْ يُعِيْنَهُ عَلَى طَلَبِ العِلْمِ، وَأَنْ يُذَلِّلَ لَهُ الصِّعَابَ، فَفَعَلَتْ.

وَرَكِبَ الغُلامُ دَابَّتَهُ، وَانْطَلَقَتِ القَافِلَةُ تَتَهَادَى فِي طَرِيْقِهَا لِمَكَّةَ.

وَفِي المَدِيْنَةِ، رَحَّبَ الوَالِي بِالشَّافِعِي، بَعْدَ أَنْ قَرَأَ الرِّسَالَةَ التِي مَعَهُ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِهِ، وَانْطَلَقَا إِلَى دَارِ الإِمَامِ مَالِكٍ.

كَانَ الإِمَامُ مَالِكٌ هُوَ نَجْمُ نُجُومِ الفِقْهِ وَالحَدِيْثِ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ، وَلَمْ يَكُنِ الوُصُولُ إِلَيهِ بِالأَمْرِ الهَيِّنِ؛ إِذْ كَانَ عَلَى الشَّخْصِ الذِي يَطْلُبُهُ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى المَسْجِدِ لِيَنْتَظِرَ مَجِيْئَهُ ضِمْنَ الوُفُودِ الهَائِلَةِ التِي تَأْتِي مِنْ كُلِّ البُلْدَانِ.

وَكَانَ بِجَانِبِ عِلْمِهِ وَوَرَعِهِ، لَهُ هَيْئَةٌ تَمْلأُ القُلُوبَ مَهَابَةً وَجَلالَةً.

وَكَانَ الشَّافِعِيُّ - وَهُوَ الصَّغِيْرُ - يَتُوقُ شَوْقًا لِمُقَابَلَتِهِ، وَقَدْ رَسَمَ لَهُ بِخَيَالِهِ صُورَةً غَايَةً فِي السَّمَاحَةِ وَالرَّوعَةِ.

وَلَمَّا خَرَجَتِ الجَارِيَةُ السَّوْدَاءُ إِلَى الوَالِي تَسْأَلُهُ عَنْ حَاجَتِهِ.

قَالَ لَهَا:

نُرِيْدُ الإِمَامَ فِي أَمْرٍ مُهِمٍّ، وَأَنَا وَالِي المَدِيْنَةِ.

دَخَلَتِ الجَارِيَةُ، وَمَكَثَتْ قَلِيلاً، ثُمَّ خَرَجَتْ تَقُولُ:

سَيِّدِي، إِنَّ الإِمَامَ يَقُولُ لَكَ: اتْرُكْ مَسْأَلَتَكَ، وَسَوْفَ يُجِيْبُ عَنْهَا الإِمَامُ فِي المَسْجِدِ أَثْنَاءَ الدَّرْسِ.

ابْتَسَمَ الوَالِي فِي خَجَلٍ شَدِيْدٍ، وَقَالَ لَهَا: بَلْ نُرِيْدُهُ فِي أَمْرٍ خَاصٍّ، فَأَنَا وَالِي المَدِيْنَةِ، وَأَحْمِلُ مَعِي تَوْصِيَةً إِلَيْهِ مِنْ وَالِي مَكَّةَ.

دَخَلَتِ الجَارِيَةُ، ثُمَّ غَابَتْ بَعْضَ الوَقْتِ، ثُمَّ خَرَجَتْ تَحْمِلُ كُرْسِيًّا وَضَعَتْهُ أَمَامَ البَابِ، وَبَعْدَ مُدَّةٍ خَرَجَ الإِمَامُ مَالِكٌ بِقَامَتِهِ الشَّامِخَةِ، وَوَجْهِهِ الذِي يَشِعُّ نُورًا وَجَمَالاً وَهَيْبَةً.

قَالَ لَهُمَا: مَا الأَمْرُ؟

فَنَاوَلَهُ الوَالِي الرِّسَالَةَ وَهُوَ يَبْتَسِمُ مُتَهَيِّبًا، فَلَمَّا تَنَاوَلَهَا الإِمَامُ، وَقَرَأَ مَا بِهَا، إِذَا بِالغَضَبِ يَرْتَسِمُ عَلَى صَفْحَةِ وَجْهِهِ، ثُمَّ رَمَى بِهَا قَائِلاً: سُبْحَانَ اللهِ! أَوَ صَارَ عِلْمُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُؤْخَذُ بِالرَّسَائِلِ؟!

هُنَالِكَ تَقَدَّمَ الغُلامُ الصَّغِيْرُ مُحَمَّدُ بنُ إِدْرِيْسَ الشَّافِعِيُّ، وَقَالَ لَهُ: أَصْلَحَكَ اللهُ! إِنِّي غُلامٌ مُطَّلِبِيٌّ (أي مِنْ آلِ عَبْدِ المطَّلِبِ بنِ هَاشِمٍ)، ثُمَّ قَصَّ عَلَيْهِ القِصَّةَ.

تَفَرَّسَ الإِمَامُ مَالِكٌ فِي وَجْهِ الشَّافِعِيِّ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ لَهُ: مَا اسْمُكَ؟

أَجَابَ الشَّافِعِيُّ: مُحَمَّدٌ.

هَزَّ الإِمَامُ رَأْسَهُ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ النَّاصِعَةَ عَلَى كَتِفِ الغُلامِ، وَقَالَ لَهُ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللهَ - تَعَالَى- قَدْ أَلْقَى عَلَى قَلْبِكَ نُوْرًا، فَلا تُطْفِئْهُ بِظُلْمَةِ المَعْصِيَةِ.

ثُمَّ أَصْبَحَ الشَّافِعِيُّ مُلازِمًا لِلإِمَامِ مَالِكٍ مُلازَمَةَ الظِّلِّ لِصَاحِبِهِ، يَسْتَمِعُ إِلَى عِلْمِهِ، وَيَقْرَأُ عَلَيْهِ المُوَطَّأَ بِصَوْتِهِ العَذْبِ الجَمِيْلِ، حَتَّى تَشَرَّبَ كُلَّ عِلْمِ الإِمَامِ مَالِكٍ، وَكُلَّ عُلَمَاءِ المَدِيْنَةِ، حَتَّى اشْتَهَرَ أَمْرُهُ، وَعَرَفَهُ العَامَّةُ وَالخَاصَّةُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَالمَدِيْنَةِ.

مَا أَنْ مَاتَ الإِمَامُ مَالِكٌ حَتَّى خَرَجَ الشَّافِعِيُّ يَتَنَقَّلُ بَيْنَ الأَمْصَارِ لِمُقَابَلَةِ مَشَاهِيْرِ العُلَمَاءِ، يَسْتَمِعُ إِلَيْهِمْ، وَيُعْمِلُ فِكْرَهُ وَعَقْلَهُ، حَتَّى أَحَاطَ عِلْمًا بِأَعْمَقِ القَضَايَا الفِقْهِيَّةِ التِي أَلْهَبَتِ السَّاحَةَ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ، وَلا غَرْوَ! فَإِنَّهُ قَدْ تَبَحَّرَ فِي دِرَاسَةِ مَا يَتَعَلَّقُ بِعُلُوْمِ القُرْآنِ، وَالسُّنَّةِ المُطَهَّرَةِ، وَالاجْتِهَادِ، وَأُصُوْلِ الاسْتِنْبَاطِ، وَالقَوَاعِدِ الكُلِّيَّةِ فِي الفِقْهِ.

وَقَرَّرَ الإِمَامُ مُحَمَّدُ بنُ إِدْرِيْسَ الشَّافِعِيُّ التَّوَجُّهَ نَحْوَ مِصْرَ، بَعْدَ أَنْ تَبَلْوَرَتْ شَخْصِيَّتُهُ، وَتَحَدَّدَتْ مَلامِحُهَا، وَصَارَ لَهُ مَذْهَبٌ خَاصٌّ وَمُعْتَبَرٌ.

خَرَجَ الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ إِلَى الفُسْطَاطِ، بَعْدَ أَنْ سَطَعَ نَجْمُهُ، وَعَلا اسْمُهُ، وَصَارَ العُلَمَاءُ وَالمُحَدِّثُونَ وَطُلابُ العِلْمِ يَضْرِبُونَ أَكْبَادَ الإِبِلِ لِلْوصُولِ إِلَيْهِ، وَحُضُورِ مَجَالِسِهِ.

وَكَانَ يَقُولُ:

مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ، عَظُمَتْ قِيْمَتُهُ.

وَمَنْ كَتَبَ الحَدِيْثَ، قَوِيَتْ حُجَّتُهُ.

وَمَنْ نَظَرَ فِي الفِقْهِ، نَبُلَ قَدْرُهُ.

وَمَنْ نَظَرَ فِي اللّغَةِ، نَبُلَ قَدْرُهُ.

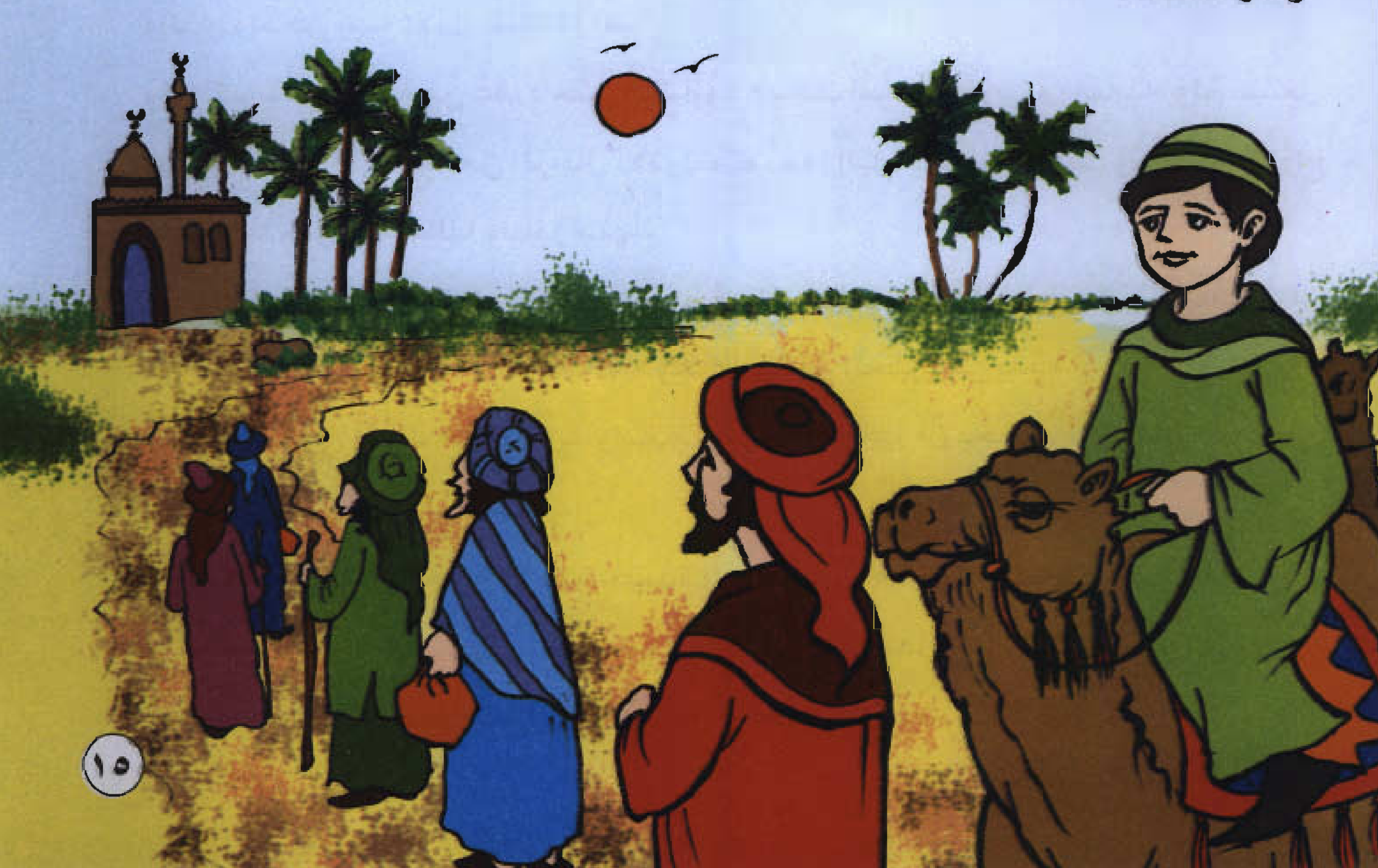
وَمَنْ نَظَرَ فِي الحِسَابِ، جَزُلَ رَأْيُهُ.

وَمَنْ لَمْ يَصُنْ نَفْسَهُ، لَمْ يَنْفَعْهُ عِلْمُهُ.

وَهَكَذَا وَصَلَ الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ إِلَى أَقْصَى دَرَجَاتِ العِلْمِ، وَاشْتُهِرَ بِالوَرَعِ، وَالزُّهْدِ، وَكَثْرَةِ العِبَادَةِ، وَصَارَ لَهُ تَلامِيْذُ يَجُوبُوْنَ الآفَاقَ، وَمِنْ أَهَمِّهِمْ إِمَامُ أَهْلِ السُّنَّةِ، "أَحْمَدُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ حَنْبَلٍ"، صَاحِبُ المَذْهَبِ الرَّابِعِ مِنْ مَذَاهِبِ الأَئِمَّةِ الأَرْبَعَةِ.

كَانَ الإِمَامَ الشَّافِعِيَّ يُحَذِّرُ مِنَ التَّعَصُّبِ الأَعْمَى لِمَذْهَبِهِ.

وَكَانَ يَقُولُ دَائِمًا: إِذَا وَجَدتُمْ فِي كِتَابِي خِلافَ سُنَّةِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ فَقُولُوا بِسُنَّةِ رَسُوْلِ اللهِ، وَدَعُوا مَا قُلْتُ.



إمام أهل السنة
أحـــمـــد بن حمبل

هَذَا رَجُلٌ عَرَفْنَاهُ بِالْحَقِّ، فَكَمَا تَعَلَّمْنَا أَيُّهَا الأَصْدِقَاءُ إِنَّ الْحَقَّ لا يُعْرَفُ بِالرِّجَالِ، وَإِنَّمَا الرِّجَالُ هُمْ الَّذِينَ يُعْرَفُونَ بِالْحَقِّ.

هَذَا الإمام رَحِمَهُ الله نَعَمْ كَانَ يَسْتَمِدُّ قُوَّتَهُ الْحَقِيقِيَّةَ مِنْ إِيمَانِهِ الْعَمِيقِ، الْمُتَأَصِّلِ دَاخِلَهُ.. الْمُتَغَلْغِلِ فِى أَعْمَاقِ نَفْسِهِ.

وَلاغَرْوَ، فَقَدْ كَانَ هَذَا الإِيمَانُ نَتِيجَةً حَتْمِيَّةً لاسْتِعْدَادِهِ الْفِطْرِيِّ الَّذِى فَطَرَهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيْهِ، فَضْلاً عَنْ نَشْأَتِهِ الصَّالِحَةِ عَلَى يَدِ أُمِّهِ، وَالَّتِى قَرَّرَتْ فِى لَحْظَةٍ مَا أَنْ يَكُونَ وَلَدُهَا الصَّغِيرُ هَذَا أَحَدَ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يُشَارُ إِلَيْهِمْ بِالْبَنَانِ.

أَضِفْ إِلَى ذَلِكَ شِدَّةَ شَغَفِهِ بِالْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ، وَطلَبَ الْحَدِيثَ عَلَى أَيْدِى كِبَارِ الْعُلَمَاءِ.

وَلَقَدْ الْتَصَقَ بِقَلْبِهِ حُبُّ النَّبِىِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، وَآلِ بَيْتِهِ، فَقَطَعَ نَفْسَهُ لِلدِّفَاعِ عَنْ سُنَّتِهِ ﷺ، وَجَمْعِ أَحَادِيثِهِ الَّتِى رَوَاهَا الصَّحَابَةُ رِضْوَانُ الله عَلَيْهِمْ جَمِيعًا، فَكَانَ " الْمُسْنَدُ " هُوَ أَحَدُ الْمُصَنَّفَاتِ المُهِمَّةِ الَّتى قَامَ هَذَا الإِمَامُ الْوَرِعُ بِكِتَابَتِهِ.

إِنَّهُ: أَحْمَدُ بنُ مُحَمَّدِ بنُ حَنْبَلَ بنُ هِلالَ بنُ أَسَدَ بنُ إِدْرِيسَ..

وَالَّذِى وُلِدَ فِى رَبِيعِ الأَوَّلِ سَنَةَ ١٦٤هـ.

وَلَمْ يَكَدْ يَبْلُغُ الثَّالِثَةَ مِنْ عُمْرِهِ حَتَّى مَاتَ أَبُوهُ، فَقَامَتْ أُمُّهُ عَلَى تَرْبِيَتِهِ وَرِعَايَتِهِ، وَلَمْ تَنْشَغِلْ عَنْهُ بِشَىْءٍ. حَتَّى إِنَّ الْكَثِيرَ مِنَ الرِّجَالِ الأَثْرِيَاءِ تَقَدَّمُوا إِلَيْهَا يَخْطُبُونَ وُدَّهَا، وَيَطْلُبُونَ الزَّوَاجَ مِنْهَا، فَرَفَضَتْ، بِرَغْمِ جَمَالِهَا وَصِغَرِ سِنِّهَا.

فَلَقَدْ أَحَسَّتْ بِأَنَّ أَمَارَاتِ النَّبَاهَةِ وَالذَّكَاءِ تَلْمَعُ عَلَى مَلامِحِ وَلَدِهَا الصَّغِيرِ أَحْمَدَ، فَقَرَّرَتْ أَنْ تُعِيتَهُ، وَأَنْ تَقِفَ بِجَانِبِهِ فَلَعَلَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَجْعَلُ الْخَيْرَ عَلَى يَدَيْهِ.

وَانْطَلَقَ الصَّبِىُّ أَحْمَدُ إِلَى الْكُتَّابِ، وَاسْتَطَاعَ فِى وَقْتٍ وَجِيزٍ أَنْ يَحْفَظَ كِتَابَ الله عَزَّ وَجَلَّ، وَيُجِيدَ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ بِشَكْلٍ مُبْهِرٍ.

وَلأَنَّهُ يَعْلَمُ جَيِّدًا أَنَّ حَالَةَ الأُسْرَةِ شَدِيدَةُ الْبُؤْسِ، وَأَنَّ أُمَّهُ تُضَحِّى كَثِيرًا مِنْ أَجْلِهِ ازْدَادَ إِصْرَارًا عَلَى التَّعَلُّمِ بَلْ وَالتَّفَوُّقِ أَيْضًا. فَقَدْ كَانَ يَتَمَنَّى رِضَاهَا دَائِمًا، وَيَبْحَثُ عَمَّا يُحَقِّقُ لَهَا السَّعَادَةَ، وَقَدْ وَجَدَ أَنَّ إِسْعَادَهَا فِى تَفَوُّقِهِ فَعَمِلَ جَاهِدًا عَلَى ذَلِكَ.

أَمَّا الشَّىْءُ الآخَرُ الَّذِى قَرَّرَهُ الْغُلامُ الصَّغِيرُ فَهُوَ كِفَاحُهُ الْمُسْتَمِرُّ مِنْ أَجْلِ لُقْمَةِ الْعَيْشِ، فَهُوَ يَرَى أُمَّهُ كَمْ تَتْعَبُ مِنْ أَجْلِهِ، فَكَانَ يَبْحَثُ عَنْ أَىِّ عَمَلٍ يَقُومُ بِهِ نَظِيرَ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ تُعِينُهُ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ، وَتُسَاعِدُ أُمَّهُ فِى مَعِيشَتِهَا، فَعَمِلَ فِى كِتَابَةِ الرَّسَائِلِ لِمَا تَمَيَّزَ بِهِ مِنْ لُغَةٍ جَيِّدَةٍ وَبَلِيغَةٍ.. وَخَطٍّ رَائِعٍ وَجَمِيلٍ.

وَصَارَ النَّاسُ يَأْتُونَ إِلَيْهِ لِيَخُطَّ لَهُمُ الرَّسَائِلَ، غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ يَتَوَرَّعُ عَنْ كِتَابَةِ الرَّسَائِلِ الَّتِى تَتَنَافَى مَعَ أَخْلاقِ الإِسْلامِ، كَرَسَائِلِ الْعُشَّاقِ وَالْمُحِبِّينَ مَثَلاً.

كَذَلِكَ امْتَنَعَ عَنْ كِتَابَةِ الرَّسَائِلِ الَّتِى أَحَسَّ أَنَّ فِيهَا ظُلْمًا لأَحَدٍ.. أَوْ مَكِيدَةً ضِدَّ أَحَدٍ. فَكَانَ ، بِرَغْمِ صِغَرِهِ. شَدِيدَ الْوَرَعِ.

وَعِنْدَمَا تَرَاهُ عَيْنَاكَ تَحْسَبُ أَنَّكَ أَمَامَ رَجُلٍ فِى صُورَةِ طِفْلٍ؛ لإِصْرَارِهِ عَلَى الْعَمَلِ وَالْكَدِّ، بِجَانِبِ اهْتِمَامِهِ بِطَلَبِ الْعِلْمِ عَلَى أَيْدِى الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ.

وَتَعَلَّمَ - كَذَلِكَ - مِهْنَةَ النَّسِيجِ، فَكَانَ يَذْهَبُ إِلَى النَّسَّاجِينَ لِيُعَاوِنَهُمْ فِى أَعْمَالِهِمْ مُقَابِلَ مَبَالِغَ زَهِيدَةٍ.

وَتَعَرَّفَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلَ عَلَى عَدَدٍ مِنَ الْمَشَايِخِ الْكِبَارِ، صَاحَبَهُمْ وَجَلَسَ بَيْنَ أَيَادِيهِمْ يَرْتَشِفُ الْعِلْمَ مِنْ بَيْنِ ثَنَايَاهُمْ. فَبَدَأَ بِالاسْتِمَاعِ إِلَى " هُشَيْمَ بْنِ بَشِيرَ أَبِي مُعَاوِيَةَ الْوَاسِطِيِّ "، وَكَانَ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْعُمْرِ ١٦سَنَةً.



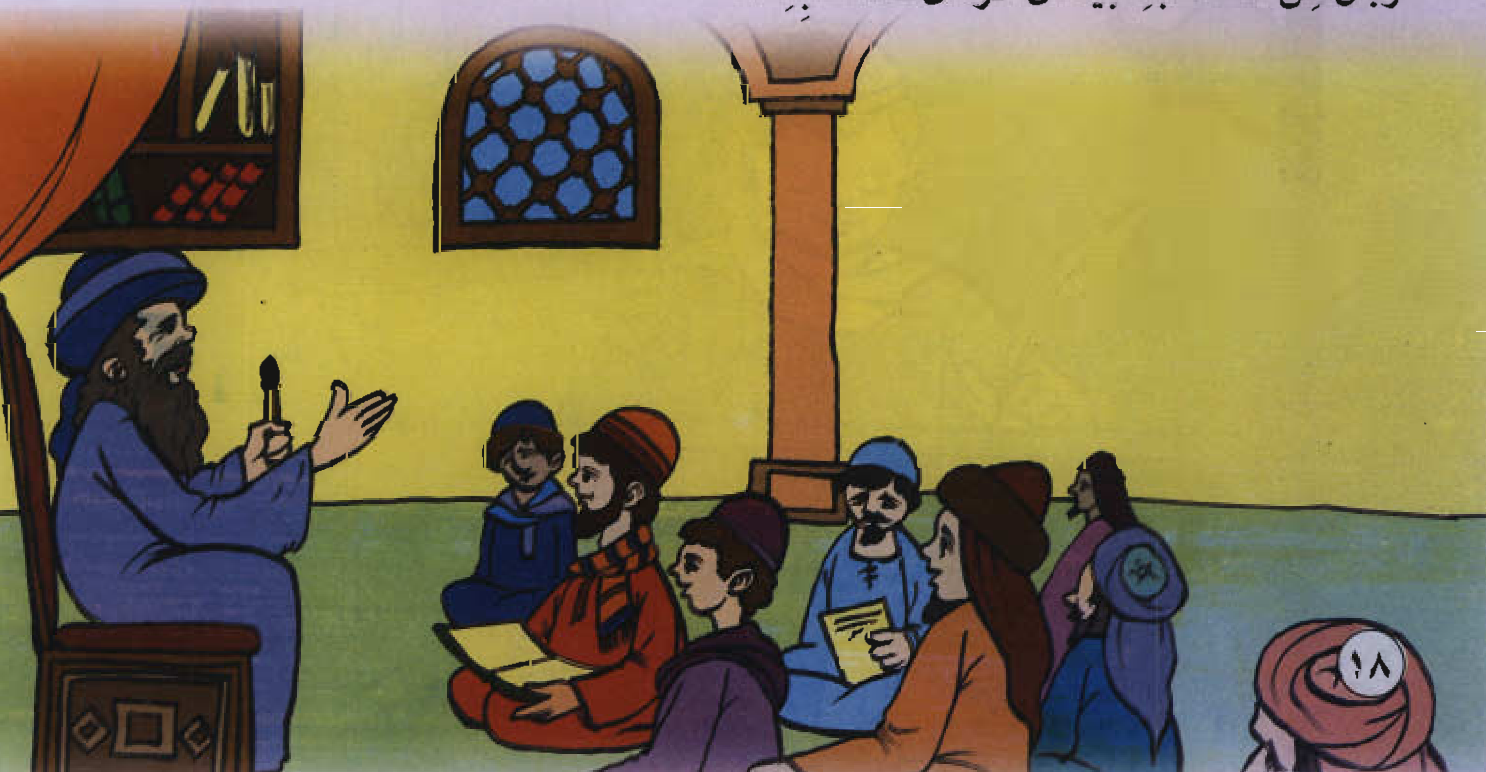
وَظَلَّ ابْنُ حَنْبَلَ يَتَلَقَّى الْعِلْمَ - وَبِالأَخَصِّ الْحَدِيثُ - عَلَى أَهَمِّ مَشَايِخَ بَغْدَادَ. مَكَثَ عَلَى ذَلِكَ سَبْعَ سِنِينَ. ثُمَّ ابْتَدَأَ يَتَحَرَّكُ لِلْخَارِجِ، فَسَافَرَ إِلَى الْبَصْرَةِ، ثُمَّ رَحَلَ إِلَى الْكُوفَةِ. يَقُولُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلَ: "خَرَجْتُ إِلَى الْكُوفَةِ فَكُنْتُ فِي بَيْتٍ تَحْتَ رَأْسِي لَبِنَةٌ، وَلَوْ كَانَ عِنْدِي تِسْعُونَ دِرْهَمًا كُنْتُ رَحَلْتُ إِلَى جَرِيرَ عَبْدِ الْحَمِيدِ إِلَى الرَّيِّ. وَخَرَجَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا وَلَمْ يُمْكِنِّي الْخُرُوجَ لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدِي شَيْئًا ".

وَلِشِدَّةِ فَقْرِهِ وَبُؤْسِهِ كَانَ يُضْطَرُّ لأَنْ يُسَافِرَ ضِمْنَ بَعْضِ الْقَوَافِلِ كَخَادِمٍ لَهُمْ، يَحْرُسُ لَهُمْ أَمْتِعَتَهُمْ، وَيَحْمِلُ حَاجَاتِهِمْ، وَذَلِكَ لِيَتَمَكَّنَ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى الْمَشَايِخَ الَّذِينَ يَسْمَعُ عَنْهُمْ.

وَمِنْ هَؤُلاءِ الَّذِينَ اسْتَطَاعَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِمْ ، وَيَرْتَبِطَ بِهِمْ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا الإِمَامُ "الشَّافِعِيُّ " رَحِمَهُ اللَّه، فَجَلَسَ إِلَيْهِ وَلَزِمَ فِقْهَهُ، وَامْتَلأَ قَلْبُهُ بِحُبِّهِ لِمَا وَجَدَ فِيهِ مِنْ قُوَّةٍ فِي الْحَقِّ، وَسِعَةٍ فِي الْعِلْمِ.

لَقَدْ كَانَ الإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلَ صُورَةً رَائِعَةً لِلزُّهْدِ وَالْوَرَعِ، وَلَمْ يَكُنْ يَضَعُ لُقْمَةً فِي فِيهِ حَتَّى يَتَأَكَّدَ أَنَّهَا مِنَ الْحَلالِ الْخَالِصِ، لا يَشُوبُهَا شَائِبَةٌ. وَكَثِيرًا مَاكَانَ يَرْفُضُ عَطَايَا الْخُلَفَاءِ وَالأُمَرَاءِ.. وَاشْتَهَرَ بِكَثْرَةِ الْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى أَشْرَقَ وَجْهُهُ بِنُورِ الإِيمَانِ، وَصَارَ يَتَلأْلأُ بِالْمَهَابَةِ وَالْجَلالِ.

لَقَدْ خَاضَ ابْنُ حَنْبَلَ - مِثْلُهُ مِثْلُ غَيْرِهِ مِنَ الأَئِمَةِ - مَعَارِكَ عَدِيدَةً. وَإِنْ كَانَتْ طَبِيعَتُهُ تُبْغِضُ ذَلِكَ. فَهُوَ مِنْ أَحْرَصِ النَّاسِ عَلَى اتِّبَاعِ سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، حَتَّى قَالَ أَحَدُ الأَعْلامِ: "هَذَا رَجُلٌ مِنْ الصَّحَابَةِ، بَيْدَ أَنَّ الزَّمَانَ تَخَلَّفَ بِهِ" !.



وَلَقَدْ صَدَقَ، فَقَدْ كَانَ مِنْ أَشْبَهِ النَّاسِ فِى زَمَانِهِ بِالصَّحَابَةِ إِيمَانًا وَزُهْدًا.. وَنَقَاءً وَتَقْوَى.

بَيْدَ أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِى ظَهَرَ فِيهِ ابْنُ حَنْبَلَ قَدْ طَغَى فِيهِ الْجِدَالُ، وَهَيْمَنَ عَلَى السَّاحَةِ بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ وَهُمْ جَمَاعَةٌ يُعْرَفُونَ بِالْمُعْتَزِلَةِ.

وَقَدْ اسْتَطَاعُوا بِمَا أُوتُوا مِنَ الْجِدَالِ أَنْ يَقُولُوا بِأَشْيَاءَ لَمْ تَثْبُتْ عِنْدَ الصَّحَابَةِ مِثْلُ قَوْلِهِمْ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ!!، أَىْ إِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ - الَّذِى هُوَ كَلامُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ - مَخْلُوقٌ مِثْلُهُ مِثْلُ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَهَذَا مُخَالِفٌ لِعَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

لَكِنَّ الإِمَامَ الْمُعَلِّمَ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلَ لَمْ يَعْبَأْ، وَلَمْ يَحْفَلْ.. وَأَطْلَقَ كَلِمَةَ الْحَقِّ صَرِيحَةً وَاضِحَةً، وَهِىَ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ كَلامُ اللهِ لا يَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ.

وَلَمْ يُعْجِبْ كَلامُهُ الْمُعْتَزِلَةَ فَقَامَ ابْنُ أَبِى دُؤَادَ وَأَوْغَرَ صَدْرَ الْمَأْمُونَ ضِدَّهُ، فَأَمَرَ بِإِحْضَارِهِ، وَتَعْذِيبِهِ وَقَامُوا بِجَلْدِهِ بِمُنْتَهَى الْقَسْوَةِ وَالْعُنْفِ. فَلَمْ يُبَالِ بِمَا أَصَابَهُ، وَتَجَلَّى إِيمَانُهُ وَصَبْرُهُ، وَإِصْرَارُهُ عَلَى قَوْلِ الْحَقِّ.. وَكَانَ يَدْعُو اللهَ عَزَّ وجَلَّ مِنْ أَعْمَاقِ قَلْبِهِ أَنْ يُثَبِّتَهُ عَلَى الْحَقِّ.

وَكَانَتْ شِدَّةٌ وابْتِلاءٌ أَصَابَتْ الإِمَامَ أَحْمَدَ حَتَّى نَصَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَكَانَ ذَلِكَ فِى زَمَانِ الْخَلِيفَةِ الْوَاثِقَ، الَّذِى أَفْرَجَ عَنِ الإِمَامِ، وَأَكْرَمَهُ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ السَّمَرْقَنْدِىُّ: سَأَلْتُ أَبَا مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ بْنِ حَنْبَلَ فَقُلْتُ: هُوَ إِمَامٌ؟ قَالَ: إِىْ وَاللهِ وَكَمَا يَكُونُ الإِمَامُ، إِنَّ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلَ أَخَذَ بِقُلُوبِ النَّاسِ. وَلَقَدْ صَبَرَ عَلَى الْفَقْرِ سَبْعِينَ سَنَةٍ.



شيخ الإسلام
أحمد ابن تيمية

كَانَ لايَزَالُ غضًّا، أَخْضَرَ الْعُودِ.. طُفُولِيَّ الْمَلامِحِ حِينَ كَانَ يَتَأَبَّطُ كُتُبَهُ وَيَتَوَجَّهُ نَحْوَ مَكْتَبِ تَحْفِيظِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.. ثَمَّةَ عَيْنَانِ تَرْصُدُ حَرَكَتَهُ، وَتُتَابِعُ خَطَّ سَيْرِهِ مِنْ بَعِيدٍ. إِنَّهُ أَحَدُ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ، وَالَّذِى قَرَّرَ فِى لَحْظَةٍ مَا أَنْ يَقْتَرِبَ مِنْهُ لِيَدْعُوَهُ إِلَى نَبْذِ الإِسْلام، وَاعْتِنَاقِ الْيَهُودِيَّةِ!

وَبِالْفِعْلِ اسْتَوْقَفَهُ الْيَهُودِيُّ، وَبِطَرِيقَةٍ بَارِعَةٍ رَاحَ يَطْرَحُ عَلَيْهِ بَعْضَ التَّسَاؤُلات، ثُمَّ يَبْتَسِمُ فِى مَكْرٍ وَهُوَ عَلَى يَقِينٍ تَامٍّ أَنَّ الْغُلامَ الصَّغِيرَ سَوْفَ يَقَعُ - حَتْمًا - فِى شِبَاكِهِ!

بَيْدَ أَنَّ الْغُلامَ الصَّغِيرَ " أَحْمَدَ ". بِكُلِّ ثِقَةٍ، أَخَذَ يُجِيبُ عَلَى جَمِيعِ أَسْئِلَةِ الْيَهُودِيِّ.. السُّؤَالِ تِلْوَ الآخَرِ.

ثُمَّ أَخَذَ هُوَ بِدَوْرِهِ يُسَدِّدُ الأَسْئِلَةَ إِلَى الْيَهُودِيِّ. وَتَحَيَّرَ الْيَهُودِىُّ وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَجِدَ إِجَابَةً شَافِيَةً، فَإِنَّهُ بِمُجَرَّدِ أَنْ يُجِيبَ يُلاحِقُهُ الصَّغِيرُ بِسُؤَالٍ آخَرَ يَضْرِبُ بِإِجَابَتِهِ الأُولَى عُرْضَ الْحَائِطِ..

وَاهْتَزَّ الْيَهُودِىُّ مِنَ الدَّاخِلِ وَهُوَ يَسْتَمِعُ إِلَى تِلْكَ الْكَلِمَاتِ الْمُضِيئَةِ، وَهِىَ تَتَوَجَّهُ بِقُوَّةٍ نَحْوَ صَدْرِهِ. وَأَحَسَّ بِأَنَّ جَسَدَهُ كُلَّهُ يَضْطَرِبُ، فَلَمْ يَمْلِكْ إِلاَّ أَنْ مَدَّ يَدَيْهِ مُبْتَسِمًا وَجَذَبَ أَحْمَدَ إِلَى صَدْرِهِ وَقَبَّلَهُ عَلَى جَبِينِهِ قَائِلاً لَهُ: إِنِّى لَأَشْهَدُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّه ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .

ثُمَّ اسْتَكْمَلَ مَعَهُ الطَّرِيقَ لِيَحْضُرَ دُرُوسَ الْعِلْمِ، وَيَحْفَظَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ.



هَكَذَا تَجَلَّتْ مَوَاهِبُهُ مُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِ، وَكَأَنَّمَا تَهَيَّأَ مُنْذُ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ لأَنْ يَخُوضَ غِمَارَ الْمُنَاظَرَاتِ، وَيَرُدَّ عَلَى أَصْحَابِ الْمِلَلِ وَالنِّحَلِ بِكُلِّ قُوَّةٍ وَشَجَاعَةٍ.

إِنَّهُ: أَحْمَدُ تَقِيُّ الدِّينِ أَبُو الْعَبَّاسِ بْنُ تَيْمِيَةَ الْمُلَقَّبُ بِـ " شَيْخِ الإِسْلامِ ". وَالَّذِى وُلِدَ يَوْمَ الإِثْنَيْنِ الْعَاشِرَ مِنْ رَبِيعِ الأَوَّلِ بِحَرَّانَ سَنَةَ ٦٦١هـ.

لَمْ يَكُنْ غَرِيبًا أَنْ يَبْرُزَ هَذَا الْفَتَى أَقْرَانَهُ، وَيَتَفَوَّقَ عَلَى مَنْ هُمْ أَكْبَرُ مِنْهُ سِنًّا لِمَا وَهَبَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ قُوَّةِ الذَّاكِرَةِ، وَلِهَيَامِهِ الزَّائِدِ فِى طَلَبِ الْعِلْمِ.. حَتَّى صَارَ أَهْلاً لِلْفَتْوَى وَهُوَ لَمْ يَبْلُغْ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ..

وَلأَنَّ الْعَصْرَ الَّذِى كَانَ يَعِيشُ فِيهِ الشَّيْخُ كَانَ يَمُوجُ بِالاضْطِرَابَاتِ السِّيَاسِيَّةِ، وَأَصْحَابِ الْمُعْتَقَدَاتِ الْفَاسِدَةِ، صَارَتْ الْكَلِمَةُ الأُولَى لِتِلْكَ الْجَمَاعَاتِ الضَّالَّةِ الَّتِى تَسْتَغِلُ سَذَاجَةَ النَّاسِ وَتَعَلُّقَهُمْ بِالدِّينِ، فَكَانُوا يَنْشُرُونَ أَفْكَارَهُمْ الْمَسْمُومَةَ لِتَسْرِى فِى جَسَدِ الأُمَّةِ سَرَيَانَ النَّارِ فِى الْهَشِيمِ.

كُلُّ هَذَا كَانَ فِى زَمَنِ الشَّيْخِ ابْنِ تَيْمِيَةَ. وَالَّذِى كَانَ يَتَفَطَّرُ قَلْبُهُ حُزْنًا وَأَلَمًا لِمَا أَصَابَ الْمُسْلِمِينَ. فَكَانَ يَلُوذُ بِمَكْتَبَتِهِ الَّتِى وَرِثَهَا عَنْ آبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ الْعُلَمَاءِ، فَكَانَ يَقْرَأُ وَيَتَمَعَّنُ، وَيَدْرُسُ.. وَيَتَفَحَّصُ، وَيُقَارِنُ، ثُمَّ يَذْهَبُ إِلَى تِلْكَ الْفِرَقِ الضَّالَّةِ فَيَدْعُوَهُمْ إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ، الطَّرِيقِ الَّذِى سَارَ عَلَيْهِ النَّبِىُّ الْهَادِى ﷺ وَأَصْحَابِهِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ، وَالتَّابِعِينَ الْمُخْلِصِينَ.

وَهُوَ فِى الْحَقِّ لا يَخْشَى أَحَدًا إِلا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، فَلَمْ يُهَادِنْ السُّلْطَانَ، أَوْ نَائِبَ السُّلْطَانِ.. وَلَمْ يَرْضَخْ لِمُجَامَلَةِ أَحَدٍ عَلَى حِسَابِ دِينِهِ.

وَهُوَ لِجُرْأَتِهِ وَصَلابَتِهِ أَصْبَحَ لَهُ أَعْدَاءٌ كَثِيرُونَ، يَحْقِدُونَ عَلَيْهِ وَيَتَمَنَّونَ لَهُ الإِيذَاءَ، بَلْ وَيُشَنِّعُونَ عَلَيْهِ الأَكَاذِيبَ وَيَنْشُرُونَهَا فِى طُولِ الْبِلادِ وَعَرْضِهَا، حَتَّى صَدَّقَهَا الْكَثِيرُ مِنَ الْعَوَامِّ وَكَانَتْ مِنَ الأَسْبَابِ الَّتِى أَوْدَتْ بِهِ إِلَى السِّجْنِ.

وَلجَأَ الْكَثِيرُ مِنْ أَصْحَابِ الطَّوَائِفِ الشَّاذَّةِ إِلى الْحِيَلِ الْبَاطِلَةِ وَأَلَّبُوا عَلَيْهِ السُّلْطَانَ. وَكَانَ السُّلْطَانُ مَقْهُورًا مِنْ دَاخِلِهِ، يَخْشَى سَطْوَتَهُمْ، وَيَعْمَلُ لَهُمْ أَلْفَ حِسَابٍ، وَهَذَا مَا كَانَ يَدْفَعُ بِهِ إِلَى غيَابَاتِ السِّجْنِ، فَمَا يَكَادُ يَخْرُجُ مِنْهُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِ وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلا بِاللهِ.

لَكِنَّهُ لَمْ يَعْبَأْ، كَانَ يَخْرُجُ مِنْ سِجْنِهِ لِيُوَاصِلَ جِهَادَهُ مِنْ جَدِيدٍ، دُونَ يَأْسٍ. يَقُولُ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِى وَجْهِ الأَبَالِسَةِ وَالْمُجْرِمِينَ، وفِى وَجْهِ الطُّغَاةِ وَالظَّالِمِينَ.. دُونَ أَنْ يَأْبَهَ لِمَا يُصِيبُهُ، فَهَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِى اللهِ، وَمِنْ أَجْلِ دِينِ اللهِ، وَكَثِيرًا مَا كَانَ يُرَدِّدُ: "مَا يَصْنَعُ أَعْدَائِى بِى؟ إِنَّ جَنَّتِى وَبُسْتَانِى فِى صَدْرِى. أَيْنَمَا رُحْتُ فَهِىَ مَعِى لا تُفَارِقُنِى.. إِنَّ حَبْسِى خُلْوَةٌ، وَقَتْلِى شَهَادَةٌ، وَإِخْرَاجِى مِنْ بَلَدِى سِيَاحَةٌ ".

وَهَكَذَا يَخْرُجُ مِنَ السِّجْنِ أَشَدَّ قُوَّةً، وَإِصْرَارًا عَلَى مُوَاصَلَةِ الْجِهَادِ، وَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْىِ عَنْ الْمُنْكَرِ. كَانَ يَدْعُو النَّاسَ لِلتَّخَلُّصِ مِنَ التُّرَّهَاتِ وَالْخُزَعْبَلاتِ الَّتِى يُؤْمِنُونَ بِهَا، يُعَلِّمُهُمْ أُصُولَ الْعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ عَلَى مَنْهَجِ السَّلَفِ الصَّالِحِ.

وقَدْ اسْتَطَاعَ ابْنُ تَيْمِيَةَ أَنْ يُقِيمَ الْحُجَّةَ الدَّامِغَةَ عَلَى خُصُومِهِ، حَتَّى إِنَّهُمْ كَانُوا يُعِدُّونَ لَهُ الْمُنَاظَرَاتِ كَىْ يَكْسِرُوا شَوْكَتَهُ، وَيُرْغِمُوا أَنْفَهُ، إِلاَّ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ كَانَ يُجْرِى الْحِكْمَةَ عَلَى لِسَانِهِ، فَهُوَ سُرْعَانَ مَا يَأْتِى بِالأَدِلَّةِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ فِى التَّوِّ، وَكَأَنَّ بَيْنَ يَدَيْهِ كِتَابًا يَقْرَؤُهُ.

فَكَانَ يَلْقُمُهُمُ الْحَجَرَ تِلْوَ الْحَجَرِ فَيَشِلُّ تَفْكِيرَهُمْ، وَيُعَطِّلُ أَذْهَانَهُمْ، وَيُخرِسُ أَلْسِنَتَهُمْ فَيَسْتَسْلِمُ الْبَعْضُ لِلْحَقِّ، وَيَنْسَحِبُ الْبَعْضُ الآخَرُ وَهُمْ يُجَرْجِرُونَ أَذْيَالَ الْخَيْبَةِ.



اشْتَهَرَ الشَّيْخُ، وَصارَ نَجْمًا مُضِيئًا فِى سَمَاءِ الإِسْلامِ، تَلْتَفُّ الْجَمَاهِيرُ الْغَفِيرَةُ حَوْلَهُ وَيَهْتِفُونَ بِاسْمِهِ، وَيُرَدِّدُونَ أَقْوَالَهُ.

أَمَّا تَلامِيذُهُ فَحَدِّثْ وَلا حَرَجَ، فَقَدْ كَانُوا مِنَ الْوَفْرَةِ وَالْكَثْرَةِ بِحَيْثُ لا يُمْكِنُ حَصْرُهُمْ، وَاشْتَهَرَ بَعْضُهُمْ وَصَارُوا أَعْلامًا تُرَفْرِفُ فِى سَمَاءِ الإِسْلامِ، مِنْ أَمْثَالِهِمْ:

شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِى بَكْرِ بْنُ قَيِّمِ الْجُوزِيَةَ.

وَالْحَافِظُ أَبُو عَبْدِ اللهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنُ عَبْدِ الْهَادِى.

وَالْحَافِظُ أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ عُثْمَانِ الذَّهَبِىُّ.

وَالْحَافِظُ عَلَمُ الدِّينِ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدَ الْبَرَزَالِىُّ.

وَغَيْرُهُمْ.. وَغَيْرُهُمْ.

وَكَانَ ابْنُ تَيْمِيَةَ سَبَبًا فِى هِدَايَةِ الْكَثِيرِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَدُخُولِهِمْ فِى الإِسْلامِ بِحِوَارَاتِهِ وَمُنَاظَرَاتِهِ وَمُؤَلَّفَاتِهِ الْقَيِّمَةِ.. وَالأَدِلَّةِ الَّتِى كَانَ يُقَدِّمُهَا إِلَيْهِمْ.

وَكَانَ رَحِمَهُ اللهُ سَبَبًا فِى رُجُوعِ الْكَثِيرِ مِنْ أَصْحَابِ الْمُعْتَقَدَاتِ الْفَاسِدَةِ وَالأَفْكَارِ السَّقِيمَةِ الْمُنْحَرِفَةِ إِلَى حَظِيرَةِ الدِّينِ، وَجَادَّةِ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ، وَمُلازَمَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

كَمَا كَانَ سَبَبًا فِى إِعَادَةِ الْكَثِيرِ مِنَ الْحُقُوقِ الْمُهْدَرَةِ لأَصْحَابِهَا. وَمَنْعِ أَشْكَالٍ عَدِيدَةٍ مِنَ الظُّلْمِ كَانَ يُمَارِسُهَا الأُمَرَاءُ فِى حَقِّ النَّاسِ.

وَصَارَ عَلَمًا يُشَارُ إِلَيْهِ بِالْبَنَانِ، وَقُدْوَةً صَالِحَةً تَجْتَهِدُ فِى دِينِ اللهِ بَعْدَ أَنْ ظَنَّ النَّاسُ أَنَّ أَبْوَابَ الاجْتِهَادِ قَدْ أُغْلِقَتْ بِانْتِهَاءِ زَمَنِ الأَئِمَّةِ الأَرْبَعَةِ.

وَهُوَ إِلَى جَانِبِ كُلِّ هَذَا وَذَاكَ كَانَ فَارِسًا مِغْوَارًا، يَمْتَشِقُ سَيْفَهُ حِينَ يَسْمَعُ " حَيَّ عَلَى الْجِهَادِ"، يَتَقَدَّمُ الصُّفُوفَ، وَيَخُوضُ الْمَعَارِكَ بِقَلْبٍ جَسُورٍ، لا يَقِلُّ شَجَاعَةً عَنْ مَيَادِينِ الْكَلِمَةِ وَقَوْلِ الْحَقِّ.

حَتَّى صَارَ ابْنُ تَيْمِيَةَ مَنَارَةَ الإِسْلامِ الشَّامِخَةَ، وَسَيْفَ اللهِ فِى وُجُوهِ الطُّغَاةِ وَالْمُلْحِدِينَ.. قَاهِرَ الْبِدْعَةِ، وَنَاصِرَ السُّنَّةِ.. وَشَيْخَ الإِسْلامِ بِلا مُنَازِعٍ.

اختبر معلوماتك

- الإمام أبو حنيفة النعمان كان صاحب إحدى المدارس الفقهية ولكن بجانب اهتمامه بـ...

التجارة

الصناعة

الشعر

***

- الإمام مالك هو إمام دار الهجرة قام بأعمال جليلة منها...

تأليفه كتاب الموطأ

تأليفه كتاب الأم

تأليفه كتاب المغنى

***

- عرف عن الإمام الشافعى وهو صغير حرصه على ...

قول الصدق

أداء الأمانة

أداء الزكاة

***

- متى ولد الإمام أحمد بن حنبل؟

سنة ٧٣ من الهجرة

سنة ١٦٤ من الهجرة

سنة ٨٠ من الهجرة

***